الطبيعة الفنية هى تلك الطبيعة التى تجعل فن الشاعر جزءا من حياته أيا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ، ومن الثورة أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ .

وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا لاينفصل فيه الإنسان الحى من الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره ، وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ، ولايخفى فيها ذكر خالجة ولاهاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان . ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل ، كما يلتقى الصديقان أحيانا طواعية واختيارا ، أو كما يلتقى الغريبان فى الحين بعد الحين على كره واضطرار . فالإنسان والشاعر فى هذه الحالة شخصان يلتقيان فى المواعيد ثم يذهب كل منهما لطيته إلى أن يتاح لهما اللقاء مرة أخرى بعد زمن قصير أو طويل .

ربما أطلت عليك فى هذا الاقتباس ، ولكنى أحب أن أتصور كلمة أساسية لم تفارق عقل العقاد قط هى كلمة «اليقظة» ، واختيارها ليس عفوا يمكن أن يسهو عنه عقل العقاد قط هى كلمة « اليقظة » ، واختيارها ليس عفوا يمكن أن يسهو عنه القارىء . اليقظة كل شىء فى تراث العقاد . لم يكن العقاد إذن مهموما بالقرن الثالث وابن الرومى والشعر فحسب . كان همه الأكبر هو اليقظة التى توجهه إلى هذا البحث أو ذاك . والناس يخدعون أنفسهم ، ويظنون أحيانا أنهم يخدمون حقائق خالية من آثار أغراضهم التى يعرفونها أو يجهلونها .

واليقظة سمحة ما فى ذلك شك . تتسع مرة أخرى لأنماط متضاربة . هذا عميق وهذا متوفز أو مهتاج . هذا مستفيض وهذا محصور . هذا مستقيم وهذا منحرف . ولكننا نستطيع أن نقبل هذا كله أو يجب أن نقبله فى إطار عام هو إطار اليقظة . فاليقظة إذن جدل بين هذه الجوانب جميعا . واليقظة كما ترى شديدة الارتباط بكلمة الشعور . ويجب ألا ننسى هذا الارتباط الذى يعطى للشعور كرامة تتعرض للنسيان . الشعور هنا هو استيعاب العالم . وكل تأويل غير هذا لا يعدو أن يكون نوعا من العجلة أو سوء الظن أو مزاج بينهما .

الشعور هنا إذن ليس انطواء ولا انحسارا ولا هروبا محضا . الشعور فى معجم العقاد مواجهة وتحد واستجابة نشيطة . وغالبا ماتكون هذه الكلمة عبارة ثانية عن اللغة . ليست كلمة الشعور فى منطق العقاد شيئا سابقا على اللغة . كلمة الشعور